

الدراسات الجزائرية لـ : ميشال فوكو : قراءة تحليلية لراهن تقهقر العلوم الإنسانية

د. رايس زواوي

أركيولوجيا المعرفة- قد أسس لإنطباعين هما: الأول أن العلوم الإنسانية تتميز بـ : اللاتاريخية، واللاإنسانية، واللاتطورية. أما الثاني حيث يرجع فوكو بالعلوم الإنسانية إلى إظهار اللغة في جدليتها بالفلسفة ووحدها الضائعة، بعد أن إنتهى إلى القول بأن العلوم الإنسانية ليست علوماً بالمرّة، وهذا بعد الكشف عن أكلوبة المسلمة الإستمولوجية: " وبإختصار نقول أن مفهوم الإستيمى مجرد أداة منهجية تقوم بسدّ الفراغ المعرفى الذي نتج عن نفي فوكو لدور الذات في عملية المعرفة وعن إعلانه موت الإنسان "(3) لهذا طوال تاريخ تكوّن العلوم الإنسانية، فقدت المعنى الكيفى الذي يحدّد مجالها المعرفى نتيجة تعقد مجالها الإستمولوجى، ما جعلها مشروع لم يكتمل بعد، لبعدها: أولاً عن الإقتراب لمحاكاة العلوم وملاستها للمناهج الدقيقة. وثانياً قُربها من الميتافيزيقا ما عجلّ بتقهقرها وهذا ما شكّل معنى ، الأزمة، في تاريخ العلوم الإنسانية. لقد إهتم فوكو بتحديد الآليات التي تمارسها السلطة، ما يُصعّب بحق الوقوف على أشكال الثبات التي تؤسس لها السلطة عملها إجتماعياً، وبالتالي تكون العلوم الإنسانية ميزة السلطة في إنتاجها لمنظومة معرفية ذات خطاب واحد هو إخضاع الأفراد الذين لا يُحسنون المكر لمواجهة مكر السلطة، فهي محايدة لعملية البراكسيس مرّة أخرى .

الكتابات المعاصرة حول موت الإنسان مع الفيلسوف ميشال فوكو ضمن سلسلة المذاهب والنظريات التي أعلنت عن موته سواء مع وجودية عبد الرحمن بدوي أو بنيوية ليفي ستروس أو جينالوجية نيتشه إلى أن غدا يُبشّر هو كذلك من خلال الأركيولوجيا عن موت الإنسان إجتماعيا من خلال نسق المؤسسة، أثناء إنتقاله من كائن إلى إنسان ثم نهايته إلى أصله الأول وتقهقره مرّة أخرى إلى كائن ضمن الكائنات. تمثل الستينيات في فرنسا قمة المدّ المتصاعد للأفكار البنيوية نتيجة: " جراتها التفسيرية المتكاملة زعزعت أسس التفسير اللاعقلاني، اللامنطقي للظواهر الإنسانية.. "(1) في تفسيرها للفلسفة العدمية حول موت الإنسان، فجاءت دراسات عمر مهيبل الجزائرية في كتابه ، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر ، تأسيساً للإهتمام بالمؤسسات الرسمية وغير الرسمية التي إحتكرت السلطة الرعوية (Pouvoir Pastoral) أمام المساحة المعرفية الصاعدة والجديدة بعد تقهقر لمنظومة معرفية وإختفائها خلال سنوات السبعينيات والثمانينيات لقول مهيبل: " يجب أن نؤكد منذ البداية أن فوكو لا يُؤرخ لتاريخ الأفكار، بل أنه يُحاول أن يؤكد الإنقطاعات الإستمولوجية التي وقعت في تاريخ الفكر الغربى "(2) إرساءً لتكملة مشروع الثقافة الجديدة الصاعدة في فرنسا أيام البنيوية، فيذكر الأستاذ مهيبل في دراسته أن كتابه -

حيث يستشعر مهيب الخطر فيما هو مألوف، نتيجة إعتبار أنّ أشكلة (Problématisation) ما هو راسخ، يبقى موضوع إشكال لأنّه يحتاج على الدوام لتفكيره (المفكر واللامفكر فيه والمستحيل على التفكير)، فكل الوقائع المحيطة هي خطر (Périlleux) على العلوم الإنسانية لأنها باتت ليست بذي موضوع ولا مركزية معرفية تميّزها، عندئذ معاناة وجود أزمة حادة هي بمثابة لحظة تفكير من جديد تُتيح عملية بناء وهدم للمنظومة المعرفية التي أسست للعلوم الإنسانية. على مرّ عقود من البحث وأحياناً من التفكير حول سبب الأزمة في الفكر العربي المعاصر، عرف المفكرون والمثقفون هاجس ظلّ يُراود هؤلاء حول الوقوف على معنى الأزمة في تفكير الدراسات العربية والجزائرية خصوصاً.

يقف الأستاذ بغورهي كتابه، ميشال فوكو في الفكر العربي المعاصر، حول تحليل محور هام وجديّ هو الإسلاميات التطبيقية وفكر الإستشراق عند محمد أركون، فيفضل، ومنذ البداية أن: "الإشكاليات وموضوعاتها قد شكّلت جزءاً أساسياً من مرجعية وتاريخية الفكر العربي الحديث والمعاصر" (4) بإرجاع، الأزمة، إلى القبول بنفس المناهج والطرق والمفاهيم القديمة دون أن يكون من داعٍ لإحداث الثورة في معنى العلوم الإنسانية والاجتماعية.

يظهر أنّ إستعمار المفهوم ❖ والمنهج والطريقة وكل الأدوات والتقنيات التي أصبحنا نفكر بها الفكر العربي المعاصر، جاءت هي نفسها لتعميق الضجوة بين القراءة والنص، في الوقت الذي كنا نعتقد فيه بأمل أن يكون خطاب فوكو الغربي، صالحاً بالنسبة لتفكير قضايا أخرى كالسلطة والمجتمع وحقوق الإنسان والحريات والهوية، :

ثم إنّ المسألة، في النهاية، مسألة تعامل وممارسة، وليست مسألة أخذ وردّ أو رفض وقبول (5).

ما من شك أنّ حضور الأزمة في الدراسات الجزائرية بالأخص، قد شكّلت نفس القضايا الأم في العالم العربي منها، التنمية، المجتمع، الثقافة، والإنقلاب (الإصلاح) من خلال تصور لتاريخ مغاير يأخذ بالحسبان: "دراسة التوزّع والتبعثر والهوامش والأطراف. فليس هنالك شيء ثابت، فحتى الإنسان وحتى جسمه متغير، وعليه يكون التاريخ، بالمعنى الجنيالوجي، ليس إستعادة للماضي أو لسيادة الذات" (6)، وإنما يكون فعلياً من خلال إستثمار منهج أركيولوجي يُؤسس لمنظور آخر إتجاه التاريخ، الإنسان، الذات والنظر إليها دائماً بقراءتها على أنّها بناء داخلي يربط الخطاب بموضوعه أركيولوجياً- تاريخياً بتوظيف مُحدّد بدقة لكافة التفرعات التي تربط ميدان الدراسة ببقية التخصصات الأخرى بالرجوع إلى تاريخ متضمن في الموضوع.

وفي سياق ذكر مهمة التاريخ مع الأستاذ بغورهم خلال نصوص فوكو في الدراسات الجزائرية، نجد أنّ ممارسة أسلوب تاريخ الحاضر كما وظفه محمد أركون أثناء تحليله الإسلاميات التطبيقية تميّزاً لها عن الإسلاميات الكلاسيكية، وهذا الإقتران بين الحداثة والتراث تأتي بنظر بغوره حينما مارس أركون المنهجية المتعددة الإختصاصات التي تستفيد من كل المنجزات التي حققتها العلوم الإنسانية، وبالتالي لا يعرف الفكر العربي طريقاً إلى إختراق مشكلة الطبقات الرسوبية، نتيجة فقدانه مسؤولية الوعي الناضج إتجاه التراث والحداثة.

"العلوم الإنسانية بيّنت دائماً بأن هناك ما يحتاج للتفكير في أشياء سبق التفكير فيها، لاكتشاف قانون الزمن كنهاية خارجية للعلوم الإنسانية، فالتاريخ يُبيّن بأن كل مفكر فيه، سيصبح دائماً كذلك موضع تفكير لم يظهر بعد" (10) ، وهنا يظهر أمامنا المستحيل على التفكير الذي يصبح قريب من المفكر فيه، فلقد أتاح الفضاء المغلق للعلوم الإنسانية عن وجود فتور في عمل الفلسفة لرهانات صعبة تنتظرها من جراء إكتشاف الرجوع (Retour)، ما يبشر بنهاية الفلسفة، نهاية الإنسان، حيث الحرف الكبير (R) يدل على قوة وهيمنة سلطة الخطاب الأنثروبولوجي كبداية لتقهقر وعجز "الأنا" بالرغم من حالة الإنفتاح.

لقد نُزع عن العلوم الإنسانية طابع القداسة (Désacrilisation) من خلال أن صار الفضاء ينحسر أمام عودة الخطاب الميتافيزيقي والأنثروبولوجي، ليزداد احتمال أن تتوصل العلوم الإنسانية إلى تقديم حلولاً لأزمته، لقول مطاع صفدي: " إنّ النزعة الإنسانية المحققة للقرن الثامن عشر، قد أنزلت اللامتناهي من ، عليائه، من حدود المطلق الإلهي والديني إلى الأرض، لكن دون أن تُغيّر من طبيعته" (11) ويتمكن فوكوي يُلملمُ متناقضات العلوم الإنسانية (Emboitement) لإخفاء عدم قدرتها على الرهانات الخارجية أمام المايحدث الذي ظل يثير الذات لتتفكر في التمفصلات المكونة للنتاهي الذي يبقى يتحقق ويحدث باستمرار بتفكك هذه الذات. فالمشكل الجوهرى بالنسبة للعلوم الإنسانية، هو في كيفية التعامل مع

يمثل تاريخ الحاضر بالنسبة للأستاذ بغوره في قراءته لمحمد أركون، أنّ ثمة إنقطاعات حاصلة وتحول من الإنتاج إلى اللإنتاج حيث وصف شبكة العلاقات الإجتماعية بأنها مكانٌ عقلي وامتكاٌ فكري وثقافي ساعد في نضج الفكر المدرسي سواء في العصر الكلاسيكي أو بعده لقول/ بغوره: " قد لا نحتاج إلى التأكيد، مرةً أخرى، أنّ هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها، بشكل كافٍ ومُرضٍ، في إطار هذا البحث، وإنما تتطلب دراسة واسعة وشاملة.." (7) .

مفهوما القريب والبعيد: " يتعلق بتوضيح كيف أنّ الآخر البعيد، هو كذلك الأكثر قرباً وهو نفسه " (8) ، حيث يحتمل اللامفكر منحيين هما: أولاً: فهو الإشكالية لأنه لم يُقترح بعد وهو نفسه البعيد، أما الثاني: وهو المفكر لأنه القريب من الأشكلة.

وهو ما يطرح الجانب الأنطولوجي لهذه الذات في علاقتها بإنتاج منظومة معرفية في تكوين لعلاقة الأنا - بالآخر الذي هو دوماً ليس بمثابة المختلف، بل الحاضر في ذاتي، وهو ما يجعلني أفكر فيه باستمرار، حيث تقل المسافة بين البعيد والقريب كلما صار المخطط الإجمالي قابلٌ للتمكن: " فتستمر الكتابة موازاةً مع إستمرار الرقابة والعقاب" (9) وهذا المخطط (Diagramme) بمثابة المكان أو الفضاء الذي يتفاعل فيه علاقات المجتمع مع المؤسسة، حيث يستطيع أن يجعل من العلاقات نادرة ومتميزة تمتاز بأنها منطوقة ومرئية، لكونها في تعايش مستمر، وهو ما يجعلها منتجة أثناء توظيفها للطب العقلي وعلم النفس وعلم الإجرام وعلم الاجتماع... كل هذا خلق منها علوماً داخل فضاءاً للإستراحة (J'achère) لا لأنها غير منتجة، بل لأنها لم تدرس بشكل متميز ولم تستنطق داخل فضاء المتناقضات: المرئي واللامرئي، الأنا والآخر.. ف

المعرفة وشروط حدوثها وهذا ما يثير معنى الأصل، خصوصاً أثناء قدوم (L'avenement) للمعرفة المعاصرة بشكل قاهر (Impérieuse) وحتمي، بل الأكثر أن هذه المحاولة بالرغم من دراساتها الجادة لتفكيك اللامفكر فيه والمستحيل على التفكير فإنّها تعرضت للإجهاض، لأنهم لم يجابها مشكلّة التراث والحداثة العربية. نعتقد أنّ موت الإنسان اجتماعياً من خلال انتمائه للمؤسسة، سمح كذلك بإعادة توزيع⁽¹²⁾ (Redistribution) الفضاء المعرفي لتحديد آليات رسم خطاب آخر، وكيفية التعامل معه، بعودة الفلسفة ضمن كوة (Embrasure) إستحوذت عليها الفلسفة من جديد بعد تقهقر إستمرّ لأكثر من مائتي سنة، وهذا فالّ لقراءة المساحة من جديد بإستثمار كل الإمكانيات المتاحة للعلوم الإنسانية أثناء تمزيقها للسداجة التي رضيت بها لنفسها، مدّة معينة، حيث تكون الكتابة إمكنية لـ: "إنتشار لفسحة يتسنى فيها التفكير مجدداً" (13) بالرجوع إلى تذكر طبيعة الإلتواءات التي مرّت بها في مسيرتها النضالية.

لقد إستطاعت بعض الدراسات الجزائرية لفكر الفيلسوف فوكو أن تُكرّس مشروع العلوم الإنسانية في أوروبا عموماً وفي فرنسا خصوصاً، ما يجعل من إهتمام المؤسسات الجامعية في الجزائر أن تحذو لنفس البراديغم بممارسته من خلال فرض لخطاب التغيير والحوار والكتابة لخلق مزيد من الإنتشار وهذا كما نعتقد بجعل الأنا المفكر هو الآخر ونفسه الأنا الكتابي. لقد قطعت المؤسسات العلمية أشواطاً علمية نحو التغيير خلال تسعينيات القرن العشرين، وهذا في سعيها تمرير الرجوع إلى إعادة الإعتبار لمشروع العلوم

الإنسانية. وبالتالي نتساءل لماذا إختفت ثقافة شاسعة كلياً من مساحة التفكير في الجزائر؟ وما هي الشروط والقواعد التي أبقت على أخرى بتكريسها؟

ما أسسه مهيل في كتابه السابق، هو التعريف بأهم المحطات التي إعتمدها الغرب حتى وصل إلى مرحلة النضج والإنتاج، أثناء تمرير فعل الكتابة كقناعة راسخة لإحداث التغيير الجذري، إلّا أنّ ما نلاحظه أنّ وصول العلوم الإنسانية إلى هذه الدرجة من الوعي يتوقف على نوعية الفرد الجزائري في هضمه لمشروع الثقافة الجديدة، كون أنّ المرور الذي يسمح للعلوم الإنسانية بالوثبة نحو الإرتجاج وبالتالي ترسيخ فعل الكتابة وتمرير الخطاب، يبقى مؤجّل إلى حين، لأننا لم نبدأ بعد لتعيين عتبة الإنتقال ومنه المجاوزة (Déplacement et Dépassement).

فعندما نقرأ التاريخ، نجده يستهويننا بدخله ويشدنا إلى أقوى درجة، بحيث لم نعد نفهم ماذا ينبغي أن يُكرّس اجتماعياً؟ سنوات 1988 هي لحظة- التوقف- للتاريخ لأول مرة، نتيجة رفض للمشروع الكلاسيكي الذي كان بلاشك مشروع أمة لكنه في آنٍ نفسه على حسابها وبالتالي مفهوم الإنسان في هذه الفترة كان في تناقص إلى غاية أحداث أكتوبر 1988، عندئذٍ بدأ كتابة التاريخ من هذه المرحلة، ورغم ذلك لم تمس مشروع مجتمع، بل لامست مشروع أمة، والفرق واضح أنّ الأول (المجتمع) يُؤسسه الوعي بالمجتمع المدني في مقابل المجتمع الجزئي (السلطة)، أما الثاني لم يترك إمكان للفرد من أن يكون صاحب المشروع الإجماعي (نحو التغيير). وبالرغم من كل المحاولات التي أجهضت لتقديم مشروع مجتمع يليق بالعلوم الإنسانية، إلّا أنّ خطاب

دراسة تواطؤ التاريخ مع الحدث يبقى يعيش الإرتجاج (Ebranlement) باستمرار لتعيين انتقال العلوم الإنسانية بالرغم من الشكل الإنسيابي إلى بلوغ درجة العلوم الأخرى لتكييف مواضيع المجتمع والمؤسسة بحسب محاولاتها وأشكلة المشروع.

درايس زواوي

شعبة الفلسفة، جامعة سيدي بلعباس

الهوامش:

- 1- مهيبل (عمر)، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية- بن عكنون (الجزائر)، ط2، 1993 .
- 2- المرجع السابق، ص 52.
- 3- المرجع نفسه، ص 57.
- 4- بغوره (الزواوي)، ميشال فوكو في الفكر العربي المعاصر ، دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت، ط2، نوفمبر 2007، ص 05.

- 5- المرجع نفسه، ص 06.
- 6- المرجع السابق، ص ص 33- 34.
- 7- المرجع السابق، ص 71.
- 8- Foucault (Michel), Les mots et les choses, Nrf, éditions Gallimard, 1966, p. 350.
- 9- Foucault (Michel), Le pouvoir psychiatrique : Cours au collège de France, 1973-1974, p. 58.
- 10- Foucault (Michel), Les mots et les choses, op. cit., p. 383.
- 11- صفدي(مطاع)، نقد العقل الغربي: الحداثة وما بعد الحداثة، مركز الإنماء القومي- لبنان، د: (ط)، 1990، ص 271.
- 12- رايس زواوي ، إشكالية موت الإنسان في خطاب العلوم الإنسانية لدى ميشال فوكو، كلية العلوم الإجتماعية- قسم الفلسفة، جامعة وهران، بإشراف: الأستاذ الدكتور مؤلفي محمد، رسالة الدكتوراه علوم، 2010- 2011 ، ص 36.(غير منشورة).
- 13- فوكو (ميشال)، الكلمات والأشياء ، تر: مطاع صفدي وآخرون، د(ط ، س)، ص 281.